٥

الصلاة
تجديد عقد الإيمان

obeikandl.com

obeikandl.com

الصلاة.. تجديد عقد الإيمان

قال النبي ﷺ: (**إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم**).

يتعرض البناء الإيماني لمواجهات مستمرة يتبناها الشيطان، فهذه وظيفته في الحياة، ويبدو أن من طبيعة الحياة الدنيا أن يظل هذا الصراع والمواجهة قائمة، وربما أن وجوده شرط لاستدامة الحياة.

وظيفة الصلاة الكبرى من وجهة نظري هي تجديد عقد الإيمان (صيانته) وذكر الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ ومن يتدبر سورة الفاتحة فسيفهم المقصود بشكل واضح. ولنتدبر هذا الحديث القدسي: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: (**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجدني عبدي، وقال مرة: فوض إلي عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: أهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**).

الذي يظهر أن الإنسان في صلاته يرتفع - بفضل الله ومنته - ليصبح طرفاً في عقد الإيمان مع ربه -عز وجل- لدرجة أن الرب سبحانه يتفضل بتوزيع بنود العقد بالتساوي، كما تفعل لو ذهبت لتوقيع عقد مهم من التجمل والاستعداد، فإن الرب

obeikandl.com

تبارك وتعالى يرشدك حتى للهيئة التي يجب أن تكون عليها حال ذهابك لتجديد عقد الإيمان، قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه كان يتوقف قليلاً بعد كل آية، ويقول: أسمع جواب ربي.

تأمل الآية الكريمة التي قسمها الله تعالى بين ذاته العلية وبين عبده: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ على العبد أن يخلص العبادة -تقديم إياك للتخصيص والتجريد- ومن الرب العون، وهنا خاطرة لطيفة من الشيخ محمد متولي الشعراوي عن اقتران هذين (البندين) فيقول رحمه الله:

> **«إن في ذلك إشارة إلى أن تخصيص الرب بالعبودية سيثير صراعاً في الكون يتطلب معونة الله على تجاوزه».**

لاحظ حساسية المواجهة وصعوبتها مع الشيطان، فهي تتطلب أن يجدد عقد الإيمان خمس مرات في اليوم والليلة وثلاث مرات على الأقل في حالة السفر والحاجة.

سأضع تحت نظر القارئ ثلاثة اقتباسات عن الصلاة كتبها ثلاثة مسلمين أوروبيين:

الأول: مسلم أوروبي بالولادة، ومن أسرة مسلمة عريقة هو علي عزت بيجوفتش رئيس دولة البوسنة السابق رحمه الله.

والثاني: مسلم أوروبي تحول للإسلام عن اليهودية هو محمد أسد رحمه الله.

والثالث: مسلم أوروبي تحول للإسلام عن النصرانية هو مراد هوفمان وفقه الله.

- علي عزت بيجوفتش في كتابه (**الإسلام بين الشرق والغرب**):

> **«الصلاة ليست مجرد تعبير عن موقف الإسلام، وإنما هي أيضاً انعكاس للطريقة التي يريد بها الإسلام تنظيم هذا العالم، فالصلاة تعلن أمرين:**

obeikandl.com

أولهما، أنه يوجد هدفان إنسانيان أساسيان. وثانيهما، أن هذين الهدفين – على الرغم من انفصالهما منطقيًّا – يمكن توحيدهما في الحياة الإنسانية، حيث إنه لا صلاة من دون طهارة ولا جهود روحية من دون جهود مادية واجتماعية تصاحبها. إن الصلاة أكمل تصوير لما نطلق عليه «الوحدة ثنائية القطب» في الإسلام. ونظراً لما في الصلاة من بساطة، فإنها قد اختزلت هذه الخاصية إلى تعبير تجريدي، وأصبحت بذلك المعادلة أو «الشيفرة» الإسلامية.

الصلاة في الإسلام باطلة من دون وضوء، بينما في الدين المجرد يمكن أداء الصلاة مع وجود (القذارة المقدسة) التي عرفتها بعض نظم الرهبنة في كل من المسيحية والهندوسية، فالرهبان الذين يتجنبون النظافة يشعرون شعوراً دينيًّا أصيلاً أن إغفال البدن – بل الإهمال المتعمد لنظافته – يقوي العنصر الروحي في الصلاة. وينطلق هذا المنطق من افتراض أن الصلاة من حيث المبدأ التي قامت عليه، ستكون صلاة أصدق إذا «تخلصت» من أي إضافة أو عناية بالبدن. فكلما قل لحضور البدني زاد التأكيد على الروحي.

يشكل الوضوء والحركات في الصلاة الجانب العقلي فيها، ووجود هذا الجانب لا يجعل الصلاة

قاصرة على جانبها الروحي المجرد، وإنما يضيف إليها النظام والصحة معاً، فهي ليست تأملاً صوفيًّا فحسب، بل نشاطاً عمليًّا أيضاً».

- محمد أسد في كتابه (**الطريق إلى الإسلام**):

يتحدث محمد أسد عن عيشه في بيت أحد أقاربه في مدينة القدس، عام ١٩٢٢م وفي معرض حديثه أشار إلى جار له في البيت، يطلق عليه لقب "الحاجي" له فناء كان يؤجر فيه الحمير لحمل الأثقال، فقال:

«وكان يجمعهم «أي الجار» مرات عدة في النهار للصلاة، وكانوا يؤدونها في الخلاء إذا لم يكن المطر منهمراً بغزارة: كانوا يقفون جميعاً في صف طويل واحد، وكان هو إمامهم. كانوا كالجنود في دقة حركاتهم - ذلك أنهم كانوا ينحنون معاً في اتجاه مكة، ثم ينهضون ثانية ليركعوا من ثم، وتلمس جباههم الأرض، كانوا يتبعون كلمات قائدهم الخافتة، وكان يقف بين الركوع والسجود حافي القدمين على سجادته المعدة للصلاة، مغمض العينين، مكتوف الذراعين فوق صدره، محركاً شفتيه دونما صوت، وشارداً في استغراق عميق: لقد كان في مكنتك أن ترى أنه كان يصلي بروحه كلها. والحق أنه قد أزعجني أن أرى مثل تلك الصلاة العميقة مقترنة بحركات جسمانية آلية، فسألت

obeikandl.com

«الحاجي» ذات يوم، وكان يفهم الإنجليزية قليلاً: «هل تعتقد حقًّا أن الله ينتظر منك أن تظهر له احترامك بتكرار الركوع والسجود؟ ألا يكون من الأفضل للمرء أن يخلو بنفسه، وأن يصلي إلى الله بقلبه؟ لِمَ حركات جسمك هذه كلها؟».

ولم أكد أنطق بهذه الكلمات حتى شعرت بالندم وتبكيت الضمير. ذلك أنني لم أكن أنوي أن أجرح شعور الشيخ الديني. ولكن «الحاجي» لم يبدُ عليه قط أمارات الاستياء، لقد فتر فمه عن ابتسامة، وأجاب:

-«بأي طريقة أخرى، إذاً تحب أن نعبد الله؟ ألم يخلق الجسد والروح معاً؟ وإذا كان هذا كذلك أفلا يجب أن يصلي الإنسان بجسده، كما يصلي بروحه؟ اسمع، سأفهمك لِمَ نصلي نحن المسلمين كما نصلي؟ إننا نولي وجوهنا نحو الكعبة بيت الله الحرام في مكة، مدركين أن المسلمين كلهم، حيثما كانوا مولون وجوههم نحوها، وأننا كجسم واحد، وأن الله هو محور تفكيرنا جميعاً، نحن نقف أولاً مستقيمين، ونقرأ شيئاً من القرآن الكريم، ذاكرين أنه كلمة الله أنزلها على الإنسان؛ كيما يكون مستقيماً رصيناً في الحياة. ثم نقول: الله أكبر، مذكرين أنفسنا بأنه ما من أحد يستحق أن يعبد إلا هو، ونركع لأننا نَعدّه

فوق كل شيء، ونسبح بعزته ومجده وبعد ذلك نسجد على جباهنا؛ لأننا نشعر بأننا لسنا تجاهه إلا من العدم والتراب، وأنه هو الذي خلقنا، وهو ربنا الأعلى، نرفع وجوهنا عن الأرض، ونبقى جالسين، داعين إليه أن يغفر ذنوبنا، وأن يتغمدنا برحمته، ويهدينا الصراط المستقيم، ويهبنا العافية والرزق. ثم نسجد ثانية على الأرض، ونلمس التراب بجباهنا تجاه عزة الواحد الأحد وعظمته. وبعد ذلك نستوي جالسين، وندعو الله أن يصلي على النبي محمد الذي أبلغنا رسالته، كما صلى على الأنبياء من قبله، وأن يباركنا أيضاً وجميع من يتبعون سواء السبيل، ونسأله أن يهب لنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة. وفي النهاية ندير رؤوسنا إلى اليمين والشمال قائلين: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» وبذلك نحيي كل من كانوا من الصالحين، حيثما كانوا، هكذا كان النبي يصلي، وهكذا علم أتباعه الصلاة في جميع الأزمنة والعصور؛ وذلك كيما يسلموا أنفسهم إلى الله مختارين طائعين – وهذا هو معنى «الإسلام» – ويطمئنوا إليه وإلى مصيرهم.

obeikandl.com

- مراد هوفمان في كتابة رحلة إلى مكة (ص٥٧):

«ربما يمكن القول: إنني كنت قريباً من الإسلام بأفكاري قبل أن أشهر إسلامي عام ١٩٨٠م بنطق الشهادتين متطهراً، كما ينبغي وإن لم أكن مهتمًّا حتى ذلك الحين بواجباته ونواهيه فيما يختص بالحياة العملية. لقد كنت مسلماً من الناحية الفكرية أو الذهنية، ولكني لم أكن كذلك بعد من الناحية العملية، وهذا على وجه اليقين ما يتحتم أن يتغير الآن جذريًّا، فلا ينبغي أن أكون مسلماً في تفكيري فقط، وإنما لا بد أن أصير مسلماً في سلوكي. إذا كان الدين يعني رباطاً يربط الإنسان بربه، وإذا كان الإسلام يعني أن يهب المسلم نفسه لله، فقد كان أهم واجباتي بوصفي مسلماً حديث عهد بالإسلام في الخمسينيات من العمر أن أتعلم صلاة الإسلام، وليس من الضروري أن يكون المرء خبيراً في الحاسب الآلي ليدرك أن الأمر هنا يتعلق بمسألة اتصال.. ما أصلح فنون الاتصال للاتصال به؟ من المؤكد، على أي حال، أنه لا شيء يعرض إسلام المرء للخطر أكثر من انقطاع صلته بربه.. ومن ثم يصبح التسبيح بحمد الله هو العنصر المحوري في حياة كل من يعي، ويدرك معنى مايقوله عند ما يقول: إنه يؤمن بالله.. وبناءً على ذلك، فإن من لا يصلي ليس بمؤمن من

obeikandl.com

وجهة نظري، فمن يؤكد لامرأة غائبة حبه لها، دون أن تكون لديه رغبة في التحدث إليها هاتفيًّا أو في الكتابة إليها ودون أن يلقي نظرة واحدة على صورتها طول اليوم، ليس محبًّا لها في حقيقة الأمر. وهذا ما ينطبق تماماً على الصلاة. فمن يعي ويدرك حقًّا المعنى الحقيقي لوجود الله، فستكون لديه بالضرورة رغبة في التأمل وفي التوجه إلى الله كثيراً.. وبذلك، فقد يصير ما يردده المسلم كثيراً، وهو يقرأ سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.. حقيقة واقعة. كنت حتى في تلك اللحظة أجهل ما يجب فعله واتباعه في الصلاة. ناهيك عن قدرتي على الحفظ والتلاوة باللغة العربية.. ومن ثم، كانت أولى أولوياتي آنذاك هي التغلب على هذا النقص.. وقبل أن أمعن في دراسة مقدمة مصورة باللغة الألمانية للصلاة الإسلامية، تحظى بأكبر قدر من الثقة طلبت من صديق تركي أن يعلمني الوضوء وكيفية الوقوف في الصلاة والركوع والسجود والجلوس على الأرض مستنداً على القدم اليسرى، ورفع الذراعين واتجاه النظر، ومتى يقرأ المرء جهراً، ومتى يقرأ سرًّا مع تحريك الشفتين في القراءة، وكيف يقف المرء موقفاً صحيحاً خلف الإمام، وكيف يتصرف المرء عندما يأتي متأخراً إلى

المسجد، وكيف يتحرك داخل المسجد. إنه علم كامل! وفي الحقيقة، فإنه من الخطر أن يتصرف المسلم بوصفه مسلماً دون أن يكون كذلك».

ومن أجمل ما قرأت عن الدلالات الرمزية في الصلاة ما كتبه أحد منسوبي الحرس الوطني في المملكة العربية السعودية في مجلة الحرس الوطني تحت عنوان: خواطر صائم، وهو الملازم أول (ولعله الآن في رتبة أعلى) الحبابي بن مبارك الحبابي:

«الصلاة لا تأتي في وقت واحد على مكان واحد، بجميع فروضها، بل تمر على جميع مناطق العالم متعاقبة، ومتسلسلة، وفي ذلك التعاقب والترتيب يحيا العالم، ويتجدد. ووقت الصلاة له دورة متعاقبة، تغطي العالم وتوفيه حقه بالتوازن والاكتمال. فهي تمر على يابسه وبحاره، من شرقه لغربه، وفي ليله ونهاره، تتدرج التدرج المحكم الموزون. فلا يمر وقت إلا في بلد أذان أو صلاة، وكأن الصلاة بهذه الحالة موجة تشق طريقها العريض مبحرة تنهض كل موطن تمّره، وترفع جناح كل قطاع تغمره. حتى إذا اكتملت هذه الدورة، بدأت من جديد، على النهج نفسه، لتعيد الكرة على العالم مرة أخرى. وهذه الدورة (الموجة) لا يعقبها دمار ولا خراب، بل يعقبها أجر وثواب إن شاء الله. فهي تبدأ بالأذان، وتقتفي بالتهليل والاطمئنان. وهي موجة النجاة. فالسعيد من وافق هذه الموجة

obeikandl.com

وكان له منها نصيب. والخاسر من فاته الركب، ولم يكن لداعي الله مجيباً. إن للمصلين في توافدهم على المسجد إذا حان وقت الصلاة، واصطفافهم الصف، واتجاههم الاتجاه الواحد، لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو بصير.

بل لو تمعنا كيف أنهم يلتمّون بعضهم إلى بعض، فتشتبك الأكتاف، وتتوحد النيات، ويتوحد الإمام، ليؤتم به... بعدها ترتفع الأيدي، وتعلن الألسن التكبير: «الله أكبر». ثم تضم الأيدي على الصدور، رابطة أحزمة الأمان، لرحلة الإيمان، التي تحلق في الأكوان، خشوعاً واطمئناناً. رحلة يبدأ فيها الإمام بقراءة أم الكتاب، التي لا تصح صلاة مسلم إلا بقراءتها، وبها يحمد الرب، ويمجَّد، ويعظم، والمأمومون من خلف الإمام يتابعون، ويتأملون، ويرجون من الله ما يرجون، حتى إذا أتى آخر السورة وكل تأهب، لتتوحد الكلمة، ويوحد الصوت، ويقولون «آمين»، وكأن الطيور، التي ضمت أجنحتها على الصدور، آنست ربيع قلوبها فغردت، وتحركت أشجانها، فأنشدت كلمتها الصغيرة «آمين» التي ترجو منها عطاء رب العالمين العظيم. وهي كلمة تنبض بها قلوبهم، وتنشدها ألسنتهم، وتخرجها آمالهم. إنها لعبرة كلمة (آمين)، هي تسمع من المصلين،

بين الفترة والحين، وهي كلمة قلناها، فهل وعيناها، وأديناها بخشوع وإخلاص، لنحصل على رضا رب الناس وقبوله؟»

الشيخ محمد متولي الشعراوي يمثل الصلاة بصنعة تعرض على صانعها، فيقول:

«إن الإنسان (صنعة الله عز وجل) تعرض خمس مرات يوميًّا على صانعها (الخالق عز وجل) فمن يؤدي الصلاة حق أدائها لا بد أن تستقيم حياته».

و الجدير بالملاحظة أن الإنسان في أثناء صلاته نهي عن التشبه بالحيوانات في مختلف الصور: نقر الغراب، إقعاء الكلب، تلفت الثعلب، بروك البعير، افتراش السبع.

لا شيء مطلقاً يفعل فعل الصلاة في إعلاء شأن الإنسان، في كتاب (**نهوض التفكير**) فطن المفكر الإسلامي د. عبدالكريم بكار في سياق مختلف إلى حقيقة مفارقة الحيوانية وعلاقتها بتعميق الإنسانية، فقال:

«كلما تقدم الإنسان بإنسانيته فارق الحيوانية».

obeikandl.com